Received at: 2024-11-23 **Accepted at:** 2025-05-06 **Available online:** 2024-05-13

الاهتمام الفرنسي المبكر بالتراث المعماري الإسلامي بالبلاد التونسية أثناء الفترة الإستعمارية هنري سلدان Henri SALADIN نموذجا

Early French Interest in Islamic Architectural Heritage in Tunisia During the Colonial Period: Henri Saladin as a Case Study

فتحية بن الطاهر بلحاج (تونس)

أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة سوسة

Fathia Ben Taher Belhaj(Tunisia)

Associate Professor, Faculty of Arts, University of Sousse

fathiabelhaj27@gmail.com

الملخص:

عادةً ما يُفترض أن الاهتمام الفرنسي بالمعالم الإسلامية في تونس جاء متأخرًا بعد الاحتلال، إلا أن هذا الاعتقاد لا يصمد أمام البحث المتخصص، فقد بدأ هذا الاهتمام مبكرًا منذ دخول القوات الفرنسية سنة١٨٨١م، حيث كانت مدينة القيروان وجامعها الكبير عقبة بن نافع محور هذا التركيز، لما لهما من مكانة روحية وثقافية جعلتهما من أبرز رموز الحضارة الإسلامية، وقد كان المهندس المعماري هنري سلدان (١٨٥١–١٩٢٣م) من أوائل الباحثين الذين درسوا هذه المعالم ضمن البعثة العلمية لسنة ١٨٨٢م، حيث أنجز مخططات معمارية دقيقة للجامع، ودرس التغيرات التي طرأت على المدينة، لم تقتصر جهوده على جامع القيروان، بل شملت أيضًا جامع الزيتونة ومساجد مدينة تونس، كما اهتم بفنون التزويق والنحت على الخشب، وتميّز سلدان بوعيه المبكر بأهمية الحفاظ على التراث الإسلامي، مقترحًا رؤية شاملة لصونه، تقوم على التعليم والتكوين المحلي كأداة فعالة لحماية الحرف والفنون الإسلامية والحفاظ على هوية المدينة الإسلامية.

الكلمات الدالة: هنري سلدان؛ المعمار الإسلامي؛ مدينة القيروان؛ جامع عقبة؛ المحافظة على العالم الإسلامية.

Abstract:

It is often assumed that French researchers' interest in Islamic monuments in Tunisia came late, following the colonial occupation. However, this assumption is challenged by historical evidence showing that such interest emerged as early as 1881, coinciding with the beginning of the French presence. A primary focus was the city of Kairouan and its Great Mosque of Uqba ibn Nafi, revered for its spiritual and cultural significance. Architect Henri Saladin, part of the 1882 scientific mission alongside René Cagnat, was among the first to study these sites. He produced detailed architectural plans and traced major transformations in the city and its mosque. Saladin's research extended to other mosques, including Zitouna Mosque and the wider urban fabric of Tunis. Notably, his work emphasized preservation, advocating education and local training as key strategies for safeguarding Islamic arts and crafts. For Saladin, protecting traditional craftsmanship was vital to preserving the soul and identity of Islamic cities.

Key Words: Henri Saldan; Islamic architecture; City of Kairouan; Uqba Mosque; Preservation of the Islamic world.

DOI: 10.21608/cguaa

المقدمة:

مع بداية الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية، شاع رأي مفاده أن سلطة الحماية لم تُبدِ اهتمامًا يُذكر بالمعالم العربية الإسلامية، ولم تُعطِ الفنّ العربي حقه من العناية. إلا أن النظر في جهود المختصين خلال تلك الفترة يكشف عن اهتمام مبكر بدراسة المعالم الإسلامية، مما ساهم في تسليط الضوء على عديد القضايا والشواغل المعمارية والفنية المرتبطة بهذا التراث.

فقد أبدى علماء الآثار والمهندسون الفرنسيون اهتمامًا واضحًا بدراسة المعالم الإسلامية، وساهموا في كشف القيم الجمالية والفنية لهذه المعالم، ويبرز في هذا السياق المهندس المعماري والباحث "هنري سلدان " (Henri Saladin)، الذي يُعد من أوائل المؤسسين للدراسات العلمية المتعلقة بالفن المعماري العربي الإسلامي أثناء الحقبة الاستعمارية.

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة القيروان وجامعها الكبير حظيا باهتمام خاص من قِبل الباحثين الفرنسيين، وهو أمر منطقي بالنظر إلى مكانة المدينة ومعلمها الديني كمركز روحي وثقافي، وقد سلطت سلطة الحماية الضوء على هذه المدينة وسعت إلى دراستها بعمق.

يتناول النص تساؤلين رئيسيين: ما هي خصوصيات التراث المعماري الإسلامي؟ وما هي الإسهامات التي قدمها هنري سلدان في هذا المجال؟

١.هنري سلدان" (Henri SALADIN) المهندس المعماري وبداياته البحثية بالبلاد التونسية:

"هنري سلدان" (Henri SALADIN) (١٨٥٣-١٩٢٣م) مهندس معماريّ فرنسي إهتمَ بالمعالم الإسلامية وساهم بشكل فعّال بأعماله في نشر الفن المعماري للبلاد التونسية، تخرّج من مدرسة الفنون الجميلة سنة ١٨٨١م، أتيحت له فرصة زيارة كل من إيطاليا وبعض بلدان الشرق وذلك في إطار تخصصه البحثي وتكوينه الأكاديمي، أرسل ضمن البعثة العلميّة لسنة ١٨٨٢-١٨٨٣م إلى البلاد التونسية من طرف وزارة الأشغال العامة حيث أنتدب بشكل رسمي في أكتوبر ١٨٨٢م كمهندس معماري لهذه البعثة التي ترأسها عالم النقائش الرومانية رني. كانيا (René CAGNAT)، ومعه كُلّف باستخراج ورسم المعالم الأثرية القديمة، وقد كان التعاون مثمرا بالنسبة للطرفين.

هذه البعثة أثارت فيه الكثير من الفضول وغرست فيه الرغبة لمزيد التعمّق والبحث في المعالم والآثار الإسلامية، كما" مثلت تحولا في حياته المهنية ووجهت كلَ اهتمامه لهذا المبحث "[١].

في سنة ١٨٨٥م أُرسل في بعثة علميّة ثانية إلى البلاد التونسية لدراسة معلم دقّة، كما "عهدت له وزارة الأشغال العامة سنة ١٨٩٩م القيام بحفريات في دقّة تحت إشراف د كارتون Dr CARTON "[٢].

---

[1]BACHA, M. « Henri Saladin (1851-1923) un architecte "beaux-arts" promoteur de l'art islamique Tunisien », Mercédès Volait et Nabila Oulebsir, (dir*), L'orientalisme architectural entre l'imaginaire et savoir*, Paris, C N R S / Picard, 2009 , 215.

[2] FRANÇOIS,P., *Dictionnaire des Orientalistes de Langue Française*, Karthala, Paris, 2008, 858.

مع مرور الوقت تدعم هذا الاعتناء والاهتمام بفن العمارة الإسلامية، ويعتبر سلدان SALADIN أول من قام بتنظيم وتصنيف هذه العالم بالبلاد التونسية، كما "أصبح عضوا في لجنة اللأركيولجيا لشمال إفريقيا التابعة لوزارة الأشغال العامة سنة ١٨٨٩م، وسريعا ما صنفه زملاؤه كمختص في العمارة الإسلامية، كما حفَز الطلبة على الإشتغال في مواضيع تهمَ العمارة الإسلامية ببلدان المغرب العربي"[٣]، ساهم صحبة أحد تلاميذه بلانشــه (BLANCHET) في تأسيس جمعية تُعنى بدراسة الفن الإسلامي .

إنَ التتويج الفعلي لمسيرة سلدان (SALADIN) البحثية في هذا المجال تجلى في باكورة إنتاجه العلمي ومؤلفاته على غرار كتابه الأوَل الصادر سنة ١٨٩٩م بالإشتراك مع برنار روا (B. ROY) وبول قوكلار (P.GAUCKLER) بعنوان Monuments historiques de la Tunisie[٤]، وكلَف سلدان Saladin بالإشراف على الجزء المتعلَق بالمعالم العربية الإسلامية وأساسا جــامع عقبة بالقيروان. وتواصل اهتمامهــ بمدينة القيروان ومدينة تونس في مؤلفــه Tunis et Kairouan[٥] الصادر سنة ١٩٠٨م والذي تناول فيه بالدرس إلى جانب القيروان مدينة تونس حيث أفرد جزءًا مهمًا من الكتاب لمعالم مدينة تونس الإسلامية، و"الكتاب موجَه للعموم ويستجيب أكثر للنواحي الجمالية والفنية للمعالم الإسلامية ولخصوصية المدينتين."[٦]

لكن يبقى كتابه[٧] Manuel d'art musulman الذي ألفه بالاشتراك مع ميجيون Gastan MIGEAN والصادر سنة ١٩٠٧ والذي لا غنى عنه في التعريف بالهندسة والمعمار وهو أول مؤلف حول تاريخ العمارة الإسلامية حيث شمل مجموعة كبيرة من البلدان الإسلامية بدءا بمنطقة المغرب العربي وإسبانيا وصقلية ومعمارها المميز، إلى مدرسة كلَ من مصر وسوريا (الشام عموما) ثم إلى منطقة فارس وبلاد الرافدين، فمدرسة تركيا وآسيا الصغرى، وصولا إلى الهند والصين، هذا العمل الضخم (٥٩٥ صفحة) جاء مدعوما بصور ورسوم ومخططات خاص بكل صنف من المدارس السابقة، كما قدَم وطرح قائمة مطولة وثرية تحتوي على بيبلوغرافيا خاصة بكل منطقة. هذا التجميع والإطلاع هو في حد ذاته مجهودا جبَارا من قبل سلدان "وما ميَز هذا الكتاب هو الجانب التأليفي والدراسة الشاملة حول المعمار الإسلامي الذي لم يسبقه إليه أحد من الباحثين الفرنسيين"[٨]، إذ حمل في طياته تفاصيل ومقارنات وتجميع أقصى ما يمكن من الوثائق التي همَت المعالم الأكثر تميزا وتعتبر علامات فارقة في تاريخ الفن الإسلامي، كما أعطى لهذه المعالم بعدا

---

3 BACHA, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte " beaux-arts " promoteur de l'art islamique Tunisien », 220.

4 GAUCKLER, P., ROY, B.,& SALADIN,H., *Monuments historiques de la Tunisie, Les monuments arabes*, Paris, Ernest LEROUX éditeur, 1899, 389.

5 SALADIN, *Tunis et Kairouan,* Les villes d'art célèbre, Paris, H Laurens éditeur, 1907, 108.

6 BACHA, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte " beaux-arts " promoteur de l'art islamique Tunisien », 221.

7 SALADIN, H., *Manuel d'art musulman*, architecture, Paris, Picard, 1907, 6.

8 SALADIN, *Manuel d'art musulman*, préface, VI, 6.

DOI: 10.21608/cguaa

كرونولجيا وخرج من خلال أبحاثه ببعض الاستنتاجات والنظريات، وقد ساعدته في ذلك مجمل الرحلات التي قام بها إلى عديد الدول المشرقية وبلدان شمال إفريقيا وإيطاليا، وبهذا "شكل كتاب Manuel d'art musulman مصدرًا رئيسيًا نهل منه عديد المؤرخين لأجيال متعاقبة".[٩]

يبقى أن نشير في هذا التقديم لسلدان إلى بعض الأعمال التي أشرف عليها بمدينة تونس على غرار قصر البريد والسوق المركزية، " كما طُلب منه أن يُساهم في إعدادا الجناح الخاص بالبلاد التونسية يُراعى فيها معمار البلد في العرض الدولي الذي أُقيم بباريس سنة ١٨٨٩ و١٩٠٠ »[١٠].

إذن كيف كانت الانطلاقة البحثيّة لهنري سلدان (Henri SALADIN)؟ وكيف كانت بدايات اهتمامه بالفنّ والمعالم العربيّة الإسلاميّة؟

في مهمّته العلميّة الثالثة بالإيالة التونسية رافق المهندس المعماري "هنري سلدان" (Henri SALADIN) "روني كانيا" (René CAGNAT) على إثر « قرار صدر في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٢ والذي نصّ على التحاقه بعمله كمساعد لكانيا (CAGNAT)»[١١].

لقد شدّد المسؤولون في باريس على ضرورة ألاّ يقتصر البحث على النقائش فقط (وهو مجال اختصاص كانيا) بل لا بدّ أن يشمل «الآثار القرطاجية والفينيقيّة، وأن يقوم بحفريات بالقرب من المناطق الساحليّة، وحتّى يتمّ الرّبط بين المدن الفينيقيّة وبقية المدن الرومانيّة الموجودة بالمناطق والجهات الداخليّة»[١٢].

وبالفعل سيتّجه كلّ من "كانيا" (CAGNAT) و"سلدان" (SALADIN) بداية من نوفمبر ١٨٨٢ في جولة أركيولوجية إلى منطقة الساحل التونسي «فانطلقا إلى مدينة لمطة فوجدا بها فسيفساء لكنهما لم يستطيعا القيام بحفريات جديّة نظرا لعدم وجود الجيش الفرنسي بكثافة في هذه المنطقة، ثمّ انتقلا إلى الجمّ حيث التقطا صورا فوتوغرافيّة للمسرح»[١٣].

وعند حلولهما بمدينة سوسة وجدا أحد الضّباط وقد أحضر لهما ترخيصا لدخول المساجد والزّوايا " للوقوف على مدى استعمال المعالم الأثريّة القديمة في عمليّة بنائها".

ممّا سبق ذكره يمكن أن نستنتج أنّ الاهتمام بالمعالم الإسلاميّة كان مبكّرا، ومنذ حلول "سلدان" (SALADIN) في جولته الأولى بالبلاد التونسية، وقد كانت ضمن اختصاصه ومجال اهتمامه العلمي، أي

---

[9] BACHA, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte " beaux-arts " promoteur de l'art islamique Tunisien », 221.

[10] FRANÇOIS, *Dictionnaire des Orientalistes de Langue Française*, 858.

[١١] أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر: الأرشيف الوطني الفرنسي: /بكرة. F17/F22/٢٩٤٤، م٢ و٢ بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٨٢، قرار تعيين السيد "سلدان" (SALADIN).

[١٢] أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر: وثيقة عدد١، رسالة بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٨٨٢، من السيد "بيرو" (Pérot) إلى "كانيا" (Cagnat) و"سلدان" (SALADIN).

[١٣] أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر / الأرشيف الوطني الفرنسي: وثيقة عدد٩، رسالة بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٨٢، من "كانيا" (Cagnat) و"سلدان" (SALADIN) إلى وزير الأشغال العامّة.

منذ ١٨٨٢ –وهو تاريخ مبكّر جدا– من قبل ذوي الاختصاص للاهتمام بالمعالم الإسلاميّة بالمقارنة مع تاريخ الاحتلال الفرنسي لتونس (١٨٨١) والأولويّات التي كانت لدى إدارتها في تلك الفترة.

ثمّ انتقل "سلدان" (SALADIN) و"كانيا" (CAGNAT) من مدينة سوسة في اتّجاه طريق القيروان، ولم يجدا سوى بقايا لخزّانات مائيّة، كما اكتشفا بها طريقا رومانيّة تربط هذه المنطقة بمدينة الجمّ.

وواصلا رحلتهما من جلمة إلى سبيطلة، وقد عاين الفريق على طول هذه المسافة البقايا الأثريّة التي تهمّ القطاع الفلاحي وخاصة المتعلّقة بإنتاج الزيت. ثم من سبيطلة ينتقل الفريق إلى قفصة لمعاينة المكان دون القيام بأيّ حفريّات تُذكر.

إنّ اللافت في مهمّة هذه البعثة العلميّة هو عمل المهندس "سلدان" (SALADIN) حيث قام بإنجاز مجموعة من الرسوم والمخطّطات التي تهمّ « لمطة والمنستير ومسرح الجمّ وجامع القيروان وقبّته والأبواب، كما قام برسوم للمعالم الموجودة بتالة وسبيطلة والقصرين وشمتو ودقّة وأيضا مدينة تونس حيث قام برسم دار الباي وجامع الزيتونة»[١٤].

كحوصلة لهذه الجولات التي أدّاها "سلدان" (SALADIN) صحبة "كانيا" في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي يمكن إبداء بعض الملاحظات:

– أنّ البعثة العلميّة التي شارك فيها "سلدان" (SALADIN) مع بداية الاحتلال الفرنسي تُعتبر من أولى البعثات العلميّة التي تتمّ بشكل علميّ ومنظّم بالبلاد التونسية.

– شملت هذه البعثة أهمّ المناطق والجهات بالبلاد التونسية.

– صحيح أنّ هنالك تركيزا على الفترة الرومانية وذلك بتوصية من الإدارة المركزيّة بباريس لكن ذلك لم يمنع فضول البعثة وخاصة "سلدان" (SALADIN) من التوجّه للاهتمام بأماكن ومعالم بعينها خاصة تلك المتعلّقة بمدينة القيروان، بل إنه مع أوّل اتّصال ومعاينة لم يغفل عن الاهتمام ببعض الجوانب الفنيّة لرسم الأبواب التي أثارت انتباهه، وبالتالي فإنّ هذه البعثة عرفت ظهور مهندس معماريّ سيكون له السّبق والمصدر الأهمّ لأعمال محورها المعمار والفنّ العربي الإسلامي.

٢. المعالم الإسلاميّة والفنّ العربي: اهتمام وفضول مبكّر من قبل سلدان (Henri SALADIN):

يمكن القول إنّ سلطات الاحتلال الفرنسي كانت واعية منذ دخولها البلاد التونسية ومن أوّل بعثة علميّة بأهميّة دراسة المعالم الإسلاميّة. وقد جاء قرار تكليف كانيا (CAGNAT) وقاسلان (GASSELIN) في ديسمبر ١٨٨٠ حيث حدّد فيه برنامج العمل مسبقا من قبل وزارة الأشغال العامّة، فقد «كانت هذه الأخيرة ترغب في القيام بدراسة معمّقة تهمّ التنظيم الإداري لروما إلى جانب معرفة الممالك

[١٤] أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر / الأرشيف الوطني الفرنسي: F17/F22/٢٩٤٤، وثيقة عدد٦١، مذكرة من "سلدان" (SALADIN) إلى مدير الفنون الجميلة، (د.ت).

DOI: 10.21608/cguaa

العربيّة التي أُقيمت على الأراضي التونسيّة»[١٥].

وقد كُلّف قاسلان (GASSELIN) بالتفرّغ للشأن العربي. لكنه انسحب من هذه المهمّة ووقع تعويضه بآخر هو بورمانسي (BOURAMANCE) الذي دُعي للقيام بأبحاث في مدينة القيروان (بين الفترة الممتدّة من أكتوبر–أفريل ١٨٨١).

وكما كان منتظَرا كانت زيارة مدينة القيروان حدثا في حدّ ذاته، حيث تمّ وصلا إليها يوم ١٨ أفريل ١٨٨١، لكنهما وجدا صعوبة كبيرة جدّا في دخولها «لأنه ليس هناك إمكانيّة لدخول المسيحيين إلى هذه المدينة»[١٦]. وقد تمكّنا عبر استعمال بعض الحيل من الوصول إلى هذه الأماكن المقدّسة كما أمكن الحصول على «وثائق عديدة باللغة العربيّة وأيضا نقيشتين باللاتينية من داخل الجامع الكبير بالقيروان، كما لاحظنا أنّ الأعمدة الموجودة بساحة الجامع الكبير تمّ جلبها من مدينة سبيطلة» [١٧].

ما يمكن ملاحظته ممّا سبق أنّ البعثات العلميّة الأولى لم تستثنِ منذ انطلاقها المعالم الإسلاميّة ولم تغيّبها بل كانت صلب عملها البحثي، والدّليل أنه وقع تعيين مختصّين في هذا المجال، وهما بورمانسي (BOURAMANCE) وقاسلان (GASSELIN) وتركيزهما عند زيارتهما لمدينة القيروان على جامع عقبة وبقيّة المساجد، واستنباط الأفكار للتمكّن من دخول عديد الأماكن المقدّسة.

ولا نستغرب أنّ البعثة العلميّة الثانية التي تمّت في سنة ١٨٨٢ أكّدت مرّة أخرى على أولويّة مدينة القيروان في البحث حتى وإن خالفت في ذلك المسؤولين الموجودين بباريس، حيث لاحظوا أنّ « المهمّة الرئيسيّة وقع تجاوزها، لأنّ الأساس في هذه المهمّة هو الفترة الرومانيّة، بينما كان بورمانسي (Bouramacé) منشغلا بالمعمار العربي لمدينة القيروان»[١٨].

إنّ التسلسل الذي أوردناه في مجال الاهتمام بالمعالم العربيّة الإسلاميّة من قبل الباحثين الفرنسيين أدرجناه هنا بشكل مقصود حتى لا ندّعي أنّ سلدان (SALADIN) هو أوّل باحث أو مهندس معماري أولى اهتمامه بالمعالم العربيّة الإسلاميّة، بل هناك كلٌّ من قاسلان (Gasselin) وبورمانسي (Bouramancé) اللذين سبقاه في المعاينة، بحكم تواجدهما داخل فريق العمل للبعثة العلميّة الأولى والثانية، والتي لم تتجاوز بالنسبة للإثنين بضعة أشهر، وتوقّفت في سنة ١٨٨٢. كما أنّ كليهما لم يتركا مادّة وفيرة نستطيع أن نقيّم من خلالها إنتاجاتهما بشكل دقيق، خلافا لسلدان (SALADIN) الذي مع حلوله بالبلاد التونسية في أواخر

---

15 BACHA, M., «Le Patrimoine monumental en Tunisie pendant le protectorat 1881-1914: étudier, sauvegarder, faire connaitre», *Thèse de Doctorat en Histoire*, Paris IV, 2004-2005, 215.

١٦ أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر / الأرشيف الوطني الفرنسي: بكرة. F17/F22/٢٩٤٤، رسالة بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٨٨٠، من "كانيا" (Cagnat) إلى وزارة الشؤون الخارجيّة.

١٧ أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر / الأرشيف الوطني الفرنسي: رسالة عدد ٣٢ بتاريخ ١٨ أفريل ١٨٨١م.

١٨ المصدر نفسه، بكرة. F17/F22/٢٩٤٤، وثيقة ٩٣، من وزير الأشغال العامّة إلى السيد بورمانيي (Bouramanier) المهندس المعماري بتاريخ ٢٠ أفريل ١٨٨٢م.

١٨٨٢م فإنّ الاهتمام بالمعالم العربيّة الإسلاميّة سيأخذ أبعادا مختلفة من اتّساع دائرة الاهتمام لتشمل الفنّ العربي وما يحمل في مضامينه من فنون عدّة. كما أنّ دراساته وأبحاثه لم تعتنِ فقط بمعالم مدينة القيروان بل تجاوزتها ليهتمّ المهندس المعماري بمدن أخرى مثل المعالم الموجودة في مدينة تونس وسوسة، إضافة إلى المدّة الطويلة التي قضاها بالبلاد التونسية والتي ستثمر في الأثناء عن إنتاج علميّ مهمّ لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لأيّ باحث في مجال الاهتمام بالمعالم العربيّة الإسلاميّة وبالفنّ العربي بالبلاد التونسية أثناء الفترة الاستعماريّة.

٢.١.مدينة القيروان وجامعها الكبير: دراسة مستفيضة:

لقد مثّلت مدينة القيروان منذ الفتح العربي الإسلامي مصدر إشعاع روحيّ وثقافيّ، كما مثّل جامع عقبة الثّقل الديني لهذه المدينة، كما اعتبرت القيروان "رابع مكان مقدّس لدى المسلمين بعد مكّة والمدينة والمسجد الأقصى ومن هنا تأتي أهمية المكان التاريخية والمعمارية "[١٩] فقد ارتبطت شهرة المدينة بجامعها، ومن الطبيعيّ أن تحظى هذه المدينة ومعلمها الديني بهذا الاهتمام من قبل الباحثين الفرنسيين منذ ولوجهم البلاد التونسية، ومن بينهم سلدان (SALADIN) والذي ركّز في تقريره الأول الذي أنجزه سنة ١٨٨٣ «على هندسة الجامع وخاصة القبّة والأبواب»[٢٠]، كما قدّم شرحا مفصلا لكل أجزاء الجامع هذا إضافة إلى عديد الصور والرّسوم التي تضمّنها التقرير.

كما تعرّض إلى «هندسة المدينة وتاريخها»[٢١] فهي لا تختلف في هندستها عن باقي المدن الإسلاميّة وهي «تنضوي على خطّة منتظمة إلى حدّ كبير يتوسّطها الجامع»[٢٢]، ولم تخرج مدينة القيروان عن هذا النموذج، حيث مثّلت القيروان الأصل والمثال الذي وقع النسج على منواله بالنسبة إلى بقيّة مدن الغرب الإسلامي.

وقد تمكّن سلدان (SALADIN) في دراسته هذه من معرفة أهمّ التغيّرات والإضافات المعماريّة التي وقعت على المدينة وعلى جامع عقبة انطلاقا من «حسّان بن النعمان الذي من المرجح أنه قام بجلب عديد الأعمدة البيزنطيّة إلى الجامع»[٢٣]، كما عرف هذا الأخير إضافات في فترة حكم إبراهيم بن الأغلب الذي شيّد بدوره مدنا جديدة على غرار صبرا ورقادة. إضافة إلى «قصور الأمراء الأغالبة والفسقيات التي شُيّدت حولها والتي إندثرت مع مرور الزمن ولم يعد لها وجود»[٢٤].

---

[19] GAUCKLER & OTHERS, *Monuments historiques de la Tunisie, Les monuments arabes*, 2.

[٢٠] أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر / الأرشيف الوطني الفرنسي: بكرة. F17/F22/٢٩٤٤، تقرير من سلدان (SALADIN) إلى وزير الأشغال العامّة حول المهمّة العلميّة لسنة ١٨٨٢-١٨٨٣.

[21] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 100.

[٢٢] بروديل، فرناند، *الحضارة الماديّة والاقتصاد الرأسمالي*، ترجمة: مصطفى ماهر، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٢م، ٧٠١-٧٠٣.

[23] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 100.

[24] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 100.

DOI: 10.21608/cguaa

واعتبر هنري سلدان (H.SALADIN) «أنّ فترة المعزّ عرف فيها الجامع الكبير تحسينات عديدة مثل الزخرف الموجود على الخشب وعلى المقصورة الموجودة على يمين المحراب»[٢٥].

كما لم يغفل عن التذكير في معرض حديثه بالتطوّرات التي عرفتها المدينة والجامع أثناء الزّحف الهلالي والتخريب الذي لحق بهما خلال هذه الفترة، ويعتبر أنّ انهيارا حصل لمدينة القيروان مع الهلاليين خلال القرن الحادي عشر،«وبحسب النقائش التي تمّ العثور عليها فإنّه أمكن الاستنتاج بأنّ جامع عقبة قد عرف إصلاحات وترميمات في الفترة الحفصيّة»[٢٦].

إنّ الوصول إلى مثل هذه المعلومات والاستنتاجات الهامّة في ما يخصّ الإصلاحات والتغيّرات التي مرّت بها المدينة والجامع الكبير بالقيروان لا بدّ أن تسبقه وتزكّيه معرفة تاريخيّة عميقة بتاريخ البلاد والمدينة تحديدا، وخلفيّة علميّة، حتى يتمكّن من الاستنتاجات التي توصّل إليها، وهذا ليس بالأمر الهيّن أو السّهل.

وتتواصل إضافات سلدان (SALADIN) في تناول التفاصيل الدقيقة لكلّ معلم. فإضافة إلى المخطّطات (les plans) التي قدّمها عن جامع عقبة، لم يغفل عن الأعمدة والتيجان «التي تعود إلى الفترة البيزنطيّة»[٢٧]، لينتقل إلى الحديث عن الساحة والأقواس الموجودة فيها ووصفها بشكل دقيق «وهي أيضا بحسب رأيه تعرّضت لعديد الترميمات والتغييرات، لكنها حافظت على خصوصيتها المتمثّلة في القوّة والبساطة»[٢٨]، كما أشار في معرض حديثه عن التبليط داخل الأروقة والصحن وأعمدة المحراب، و قد لاحظ أنه «ربما وقع إقتلاعه من كنيسة بقرطاج»[٢٩]، ويمكن أن نستنتج مما أورده هنري سلدان أنه انساق وراء الآراء والأفكار التي انتشرت لدى العديد من المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين، وفي الحقيقة أن الكثير من آراء تخالف الواقع أو يعوزها الاثبات وهذه الآراء تنصب بالأساس على نشأة المساجد الاسلامية وعلى تكوين مكان عبادة المسلمين.

وقد ظهرت العديد من الدراسات التي تفند هذا التوجه ومن بينها ما أورده الدكتور أحمد فكري في مؤلفه "مسجد القيروان"، حيث يعلن وبشكل صريح "إذا كان لهؤلاء الباحثين والمستشرقين بعض الفضل، فإن ما يعاب عليهم أنه ما تقع أعينهم على عنصر معماري أو حلية زخرفية تتصل بفنون سبقت الإسلام ،إلا وجردوها من صبغتها الإسلامية وألبسوها شخصية هذه الفنون ولهذا اختلفت آراءهم باختلاف نزعاتهم، فمنهم من يقول أن الفن البيزنطي كان أكبر عامل في نشأة الفن الإسلامي وتطوره ومنهم من يلصق هذا الفضل للفن الإيراني أو بالفنون الهندية أو بالفن القبطي أو بفنون سوريا الرومانية.[٣٠]

واعتبر سلدان (SALADIN) «أنّ المنبر هو المعلم الوحيد الذي نجد فيه نقشا على الخشب الذي

---

[25] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 104.
[26] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 107.
[27] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 119.
[28] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 122.
[29] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 125.
[٣٠] فكري، أحمد، مسجد *القيروان* ، مصر: مطبعة المعارف، ١٩٣٥-١٩٣٦م، ١٣.

يعود إلى القرن التاسع ميلادي (IXم)، وهذه النقوش الخشبيّة هي الأكثر تنوّعا في مستوى الأشكال والزينة»[٣١].

وللتأكيد على أهميّة العمل الذي أنجزه سلدان (SALADIN) فإنه وفي فترة مبكّرة من الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية استطاع أن يقحم في دراسته لهذه المعالم عديد المقارنات بين جامع عقبة والجامع الأموي أو المسجد الأقصى بالقدس أو مسجد عمر (قبّة الصخرة). واستطاع أن يستنتج أنّ «جامع عقبة لا يحمل في ملامحه علامات العظمة والبذخ بل هنالك نوع من التقشّف الذي يبدو جليّا وواضحا»[٣٢].

غير أنّ سلدان (SALADIN) لا يُخفي إعجابه بالفنّ العربي القديم الذي أنجز من خلال بعض المعالم بالبلاد التونسيّة «فقد أكون غير عادل إذا لم ألحّ على نوعيّة الأعمال الفنيّة العربيّة المنجزة في البلاد التونسية خلال القرن ١٧ و١٨ وبداية القرن ١٩»[٣٣] والتي نجد فيها التأثير الأندلسي واضحا، فهي تحتوي على مستوى من التزويق والزينّة ترتقي إلى مستوى الاهتمام بها ودراستها.

وهذا يتطابق مع ما ذهب إليه المؤرخ والعالم الآركيولوجي والمختصّ في الفنّ الإسلامي لاحقا "جورج مارسي" (G.Marçais) الذي يرى أنّ وقع تصحيحه البلاد التونسية من بين البلدان العربية الإسلامية التي عرفت دورة كاملة للفن الإسلامي [٣٤].

٢.٢. معالم إسلاميّة أخرى أُخرجت من النّسيان:

٢.٢.١.مساجد القيروان الأخرى:

لم تقتصر اهتمامات سلدان (SALADIN) على جامع عقبة ابن نافع فقط بل أولى عناية لمجموع المساجد الأخرى الموجودة بمدينة القيروان خاصة "مسجد أبي زمعة البلوي"، حيث لاحظ أنّ «أساليب التزويق سهلة وبسيطة، ويمكن أن نستشفّ كذلك التأثيرات الإيطالية، وهذا ما نلحظه بشكل واضح على باب هذا المسجد»[٣٥]. وأقحم هنا كلّ التفاصيل الموجودة المتعلّقة بالتزويق، محمّلا أيضا رسوما وصورا. كما قدّم "مسجد الأبواب الثلاثة" وتاريخ تأسيسه والإصلاحات التي شملته.

إلى جانب تعرّضه لعديد الزوايا التي لعبت في نفس الوقت دور المسجد مثل "زواية سيدي عبيد الغرياني" التي اعتبرها من أجمل الزوايا وأكثرها "أناقة" وبهندسة مختلفة عن البقيّة « فهي تحتوي على جليز مزركش»[٣٦]، و"زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني"، "وزاوية سيدي محمد بن عيسى (المكناسي)" وغيرها من الزوايا التي تعرّض لها في بحثه، وتمكّن من زيارتها ووصفها بشكل دقيق من الناحية المعماريّة أو التاريخيّة أو النواحي الفنيّة والجماليّة لهذه المعالم الدينيّة .

---

31 SALADIN, *Tunis et Kairouan,* 126.
32 SALADIN, *Tunis et Kairouan,* 130.
33 SALADIN, *Tunis et Kairouan,* 136.
34 GORGES, M., *Manuel d'art musulman : Architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*, Paris, Editions Auguste, 1926, 912.
35 SALADIN, *Tunis et Kairouan,* 138.
36 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 133.

DOI: 10.21608/cguaa

٢.٢.٢. معالم أخرى خارج مدينة القيروان محلّ اهتمام سلدان (SALADIN):

لئن مثّلت القيروان وجامعها الكبير الفضول الرئيسي للمهندس المعماري سلدان (SALADIN) منذ دخوله البلاد التونسية، فإنّ ذلك لم يمنعه من الاهتمام بمعالم إسلاميّة أخرى خاصّة تلك الموجودة بمدينة تونس مثل "جامع الزيتونة"، مستعرضا تاريخ هذا الجامع وهندسته المعماريّة.

فجامع الزيتونة الذي أقيم على أنقاض كنيسة مسيحيّة اُعتبر فضاء تعليميا مهما بالنسبة إلى التونسيين وله إشعاع يتجاوز مدينة تونس.

كما قام بالتمييز ووصف الاختلاف الموجود بين المسجد المالكي الذي يتميّز في هندسته بالشكل المربّع على خلاف المسجد الحنفي مثل "جامع صاحب الطابع". قد يكون ما أورده هنري سلدان حول الإختلاف الموجود بين هذه المساجد، ينم عن جهل بتفاصيل السياقات التاريخية التي تم فيها تشييد هذه المعالم الدينية.

كذلك الأمر بالنسبة إلى القصور الموجودة بمدينة تونس وبعض المنازل التي تعود إلى شخصيات ذات بال، فقد قام بدراسة عديد القصور التي بقيت منذ القرن الثالث عشر كقصر باردو والمرسى ومنوبة، وإذا أخذنا على سبيل المثال قصر منّوبة فقد قام بوصفه بشكل تفصيلي بين الطابق السّفلي والطابق العلوي والأروقة والنوافذ والأبواب والرّخام الموجود به، والذي يحمل الكثير من التأثيرات الإيطالية. وقد دخل كلّ هذه القصور وتنقّل بين مختلف أجنحتها وتفحّص محتوياتها في وقت مبكّر من الفترة الاستعماريّة، فقد تمّت المعاينة الأوليّة في الفترة بين ١٨٨٢ و١٨٨٣ ولاحقا، بشكل علميّ، والذي يحمل مجهودا دراسيّا وبحثيّا لرجل ذو اختصاص.

واستنتج سلدان (SALADIN) أنّ العديد من القصور «في حالة سيّئة وتتطلّب التدخّل والإصلاح والترميم لكن نقص الإمكانيات يحول دون القيام بهذا التدخّل»[٣٧].

وقد أشار إلى ملاحظة هامّة بخصوص وضعيّة القصور حيث «اعتبر أنّ المساحة التابعة لها في سنة ١٨٨٢ كانت كبيرة، وكانت عبارة عن حدائق وبساتين بها غراسات للأشجار المثمرة لكن المشهد تغيّر ووقع التقليص في المساحات بعد الاحتلال الفرنسي لتونس»[٣٨].

لقد تمكّن سلدان (SALADIN) منذ بداية رحلته البحثيّة من الدخول إلى عديد المنازل الفاخرة والقصور التابعة للعائلة الحاكمة وحاشيتها وفي وقت مبكّر، مما مكّنه من وصفها بشكل شافٍ، وهذا الأمر لم يتيسّر له بنفس الطريقة وبنفس السّهولة بمدينة القيروان التي لم تتح له الفرصة للتدقيق والتمعّن قصد الدراسة والبحث.

٢.٢.٣. اهتمام بفن التزويق العربي:

---

[37] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 83.

[38] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 84.

كما ذكرنا سابقا عند دراسته لجامع عقبة بن نافع، فإنّ سلدان (SALADIN) تعرّض في معرض بحثه لفنّ التزويق الموجود في بعض أجزائه وخاصّة الديكور والنّحت على الخشب الموجود على المنبر.

وواصل بحثه في هذا الاتجاه عند تناوله المعالم الموجودة بمدينة تونس، فأثار فضوله التزويق الموجود في بعض القصور «فوجد التأثيرات المغربيّة التي كانت واضحة في فنّ الجبس»[٣٩]، إضافة إلى «فنّ التطريز والمنسوجات التي بقيت لدى بعض العائلات والأسماء، على غرار محمد الهادي وأحمد القصوري وأحمد الحشايشي، وعائلة وهذا الأخير مختصّة في فنّ التزويق والكتابة، وقد قام المهندس برسم بعض أشكال التزويق التي لفتت انتباهه ووجد فيها الكثير من الحرفيّة بل لم يستغرب وجودها وتميّزها باعتبار وجود كنوز فنيّة بالمعالم الأثريّة التونسيّة، ويمكن إعطاء مثال متحف باردو حتى نندهش من القطع القديمة التي وقع استخراجها منه وخاصة القطع الفسيفسائيّة»[٤٠]،هذه الحرف وفنّ التزويق العربي في البلاد التونسية هو ثريّ ولا بدّ من المحافظة عليه.

٣. إدراك مبكّر لأهميّة المحافظة على المعالم والفنّ العربي الإسلامي:

٣.١. بعض مظاهر المحافظة من قبل فرنسا:

إنّ المحافظة على المعالم الأثريّة هي عمليّة معقّدة تتداخل فيها مجموعة من الأطراف وتمرّ عبر إجراءات عديدة، لكن تبقى أوّل خطوة وأهمّها المعاينة الميدانيّة، ولا يمكن الحكم على مجالات التدخّل وتوقيتها ونسبتها إلاّ من خلال أخصائيين في هذا المجال، وقد توفّر لدى سلدان (SALADIN) هذا الشرط أو المبدأ الأول وهو المعاينة والمعرفة بهذه المعالم الإسلاميّة، وذلك بحكم تنقله ومعرفته بجغرافية المواقع الأثرية وهذا الإلمام هو الذي خوّل له، "أن يقدم المشورة والنصح لدو لابلانشار* DE LA BLANCHERE (رئيس قسم الآثار والفنون وأول مدير للمتحف العلوي) فيما يخص المحافظة وترميم بعض المعالم الإسلامية"[٤١]. ولئن كانت هذه المشورة ذات طابع ودّي وغير مُلزمة لرئيس قسم الآثار والفنون إلا أنها تعكس بما لا يدع مجالا لشَك بما يحمله تصوَر سلدان من برنامج ريادي في مجال المحافظة، ومن إستباق لبرامج سوف ترى النور إلاَ في حدود سنة ١٩١٣م.

بقي علينا أن نفهم تصوّر المهندس المعماري لتتمّ المحافظة على المعالم الإسلامية؟

نقول تصوّرا لأنّ كلّ الأمور التي تُطرح أو تشغل البال قد لا نجد لها أجوبة وحلولا سريعة، فالترميم والمحافظة يتطلّب وجود ترسانة قانونيّة تنظّم هذا التدخّل وتعطيه المشروعيّة.

غير أنّ التشريعات في مجال المحافظة على التراث المادي قد نصّت «على أن يكون التصرّف في

---

39 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 76-77.

40 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 137.

41 BACHA, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte " beaux-arts " promoteur de l'art islamique Tunisien », 218.

DOI: 10.21608/cguaa

هذه المعالم من مهامّ ومشمولات المقيم العامّ»[٤٢]. كما تمّ وضع قائمة يتمّ فيها تصنيف المواقع والمعالم التي تتطلّب تدخلا سريعا في عمليّة الترميم والصيانة. ولا يخفى هنا أن تكون الأولويّة للمحافظة على المعالم الأثريّة لمخلّفات الفترة الرومانية ثم البيزنطيّة.

لكن هذا لا يمنع سلطات الاحتلال الفرنسي من وضع عديد المعالم الإسلاميّة ضمن القائمة التي يجب الحفاظ عليها، وتأتي في صدارة هذه القائمة مجموعة من المساجد أهمّها «جامع عقبة بن نافع، وجامع سيدي الصحبي، ومسجد سيدي عبيد، ومسجد الأبواب الثلاثة، وجامع القصبة، وجامع الزيتونة، وباب تونس، ودار علي بني عيسى، ومسجد بباجة»[٤٣]، وقد ورد هذا في منشور بتاريخ ١٠ مارس ١٨٨٧ والذي صنّف بعض المعالم الأثريّة بما فيها العربيّة كمعالم تاريخيّة.

وقد ساهمت أبحاث سلدان (SALADIN) في الوصول إلى هذه النتيجة المبكّرة وفي سرعة الانتباه والالتفات إلى هذه المعالم العربية الإسلاميّة، "وهذا ما دفع المقيم العام الفرنسي بإستدعائه للقيام بمشروع لتنظيم قسم يُعنى بالمحافظة على المعالم الأثرية العربية الإسلامية، لكن هذا المشروع لم تقع متابعته ولا تجسيمه."[٤٤]

ولكن الالتفات والاهتمام لا يعني بالضرورة التدخّل مباشرة في عمليّات الترميم والصيانة، لكنه مع ذلك بادر إلى طرح بعض الأفكار والمُقترحات التي أخذت طابعا وديًا، كتلك المتعلقة "بترميم منبر جامع عقبة بالقيروان والتدقيق في إختيار المواد المستعملة لهذه العملية حتى يحافظ على شكله الأصلي "[٤٥] فبحكم أنّ المعالم الإسلاميّة تعود بالنظر إلى جمعيّات الأوقاف والأحباس، وبالتالي لم يكن هناك نفس التمشّي ونفس المعالجة مع المواقع الأثريّة الأخرى، كما أنّ أسلوب الهندسة المعماريّة الإسلامية يفسر جزءًا من خصوصيّة التدخّل وصعوبته، إضافة إلى حساسيّة هذه العمليّة في حدّ ذاتها.

وإلى جانب المساجد كان هناك اهتمام بالأسوار والحصون والرّباطات والقصور فعلى سبيل المثال فإن الجناح الذي تمّ تحويله إلى متحف من قصر باردو "دعى سلدان (SALADIN) إلى نقل قطعه الخزفية وعرضها في التحف"[٤٦].

لكن هل أنّ هذه التدخّلات وأعمال الصّيانة كافية بحسب المهندس المعماري للحفاظ على الإرث العربي أم أنّ هناك وسائل أخرى أنجع؟ وما هي استراتيجياته وتصوّراته لمثل هذه القضايا؟

---

42 BACHA, «Le Patrimoine Monumental en Tunisie Pendant le Protectorat 1881-1914: étudier, Sauvegarder, Faire Connaitre», 337.

٤٣ أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية: /بكرة ٢٤٥٠، م١، ١١.

44 FRANÇOIS, *Dictionnaire des orientalistes de langues Française*, 858.

45BACHA, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte " beaux-arts" promoteur de l'art islamique Tunisien », 218.

46BACHA, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte " beaux-arts " promoteur de l'art islamique Tunisien », 219 .

٣.٢. تصوّر سلدان (SALADIN) للمحافظة على الفنّ العربي:

إنّ أوّل نقطة في برنامج سلدان (SALADIN) هي «تطوير المؤهّلات وإعادة إحيائها عبر التعليم والتكوين»[٤٧]، وهو يرى أنّ التعليم على الطريقة الفرنسيّة فيه الكثير من السلبيات، لأنه في صلب العمليّة التعليميّة نفسها وعلى الطريقة والمناهج الفرنسيّة «تُفقد المتكوّنين المزيد أو ما بقي لديهم من عاداتهم الأصليّة والأصيلة، فالتعليم ليس تقنية فقط بل هو فنّ، والفنّ يملكه أهل البلد، ولا بدّ من إعادة تسريب هذا الفنّ لأهل البلد»[٤٨].

فهذه الحرف الفنيّة هي ثروة لا بدّ من المحافظة عليها من الإتلاف والضّياع، وهذه العمليّة لا تهمّ عالم الآثار فقط بل كلّنا معنيّون. فبإمكان أهل البلد المحافظة على هذه الفنون وتطويرها، وحسب رأيه البلد الذي يحتوي على خزان من الفسيفساء فائقة الجمال والقصور العربيّة الأنيقة لديه القدرة على الاستفادة من هذا الإرث واستغلاله بأفضل طريقة.

«لكن لا أحد من الفنانين المحليين (أهالٍ أم فرنسيين) استطاع الاستفادة من هذا الموروث ولو بالنزر القليل، فقد كان بالإمكان استغلال العدد المحدود من أشكال الزينة والتزويق وسحبها لخلق فنون وهندسة معماريّة جديدة لها أصول وجذور تستند إليها»[٤٩]، فهذه المعالم والفنون هي من الأهميّة من الناحية الفنية التي تستوجب الدراسة والمعرفة.

ولا يمكن للدّارس هنا أن يسقط من حساباته الصعوبات الموجودة للدخول والنفاذ إلى العقليات التي أنتجت هذه النوعية من الفنون، وإذا لم نستطع الاستفادة منها فإنها «تصبح عبارة عن علوم ميتة»[٥٠].

لذا كان من الضّروريّ الاعتناء بكلّ الحرف والمهن التي هي في علاقة مباشرة بالفنون حتى لا تدخل طيّ النسيان، فحِرف مثل التزويق على الخشب أو على البرنز والخزف والرسم على البلور والرسم على القماش، إزاء هذه الوضعية «علينا أن نقوم باسترجاع كلّ الصناعات الفنيّة وأن نكون لهم ممنونين ومعترفين بالجميل، لما قدّموه من مجهودات للحفاظ على هذه الصناعات الفنيّة»[٥١].

ويرى سلدان (SALADIN) أنّه من بين الحلول التي يجب العمل عليها بكلّ جدية حتى ننقذ هذه المعالم والقطع الفنية العربيّة «هي أن ننقذ أولا وقبل كلّ شيء ما بقي من تقاليد حرفيّة فنيّة»[٥٢]، إذ السّبيل للحفاظ على هذا الإرث الفني والأركيولوجي العربي الإسلامي يمرّ:

– أولا عبر التعليم الحرفي للأهالي أو لأهل البلد لأنهم الأكثر قدرة على الإبداع في هذا المجال ولديهم قابليّة للتعامل معه وتطويعه بحسب تركيبتهم الذهنيّة.

---

47 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 82.
48 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 82.
49 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 138.
50 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 140.
51 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 140.
52 SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 140.

DOI: 10.21608/cguaa

– المسألة الثانية «هي إنقاذ ما يمكن إنقاذه وإبعاده عن التدمير الذي يمكن أن يلحق به»[٥٣].

– المسألة الثالثة هي أن تُستغلّ هذه الفنون والمعالم كمادّة علميّة ومعرفيّة يتمّ الاشتغال عليها ودراستها دراسة علميّة وأكاديمية.

– إذًا نرى أنّ استراتيجية سلدان (SALADIN) تمرّ عبر الحفظ والمحافظة على الحرف والحرفيين المحليين الذين شيّدوا المساجد والرّباطات، وقاموا بالنقش والتزويق على الخشب وغيرها.

–والمحافظة أيضا هي بحسب رأيه « الإبقاء والحفاظ على طابع المدينة العربيّة وروحها، بمعالمها ومساجدها. فالمحافظة تساوي هنا الإبقاء على الطابع المحلي لكلّ مدينة أو لكلّ بلد»[٥٤].

الخاتمـــة والنتائج :

لقد كانت البلاد التونسية مُنطلقا لشغف المهندس المعماري سلدان بالمعالم الإسلامية، كما كانت أبحاثه المتعلقة بالقيروان وبجامعها الكبير عقبة بن نافع الأبكر من حيث التوقيت والأنجح في مسيرته العلمية، وكانت القاعدة لانطلاق مجمل أبحاثه المستقبلة ووجهتها وفتحت أمامه أفاق ومواضيع أرحب للمعرفة بتاريخ وبخصوصية المعمار الإسلام. فله يعود الفضل في تأسيس هذا المبحث بشكله العلمي أثناء الفترة الاستعمارية ليس في تونس فحسب، بل تجاوزه إلى فضاء أوسع وأشمل وهي البلدان الإسلامية .

وقد يكون السياق التاريخي والظرفية التي وُجد فيها هذا المهندس أثناء تأدية مهامه بالبلاد التونسية، لم يكن فيها الاهتمام بالمعالم الإسلامية كميدان معرفي مستقل، ولم يكن يحظ بالدعم المادي كما حظيت بذلك الدراسات المتعلقة بالمعالم الرومانية على سبيل المثال، لذلك لم تجد أعماله الشهرة الكافية التي حظيت بها دراسات أخرى.

لكن اللاّفت أكثر بالنسبة لسلدان من وجهة نظرنا هو مجمل الأفكار والمشاريع التي قدمها للمحافظة على المعمار والفن الإسلامي، وكان في هذا من السبَاقين في طرح مثل هذه المواضيع وبطريقة عملية وفي وقت مبكر، وبالتالي فإن مشروعه في الدراسة والمحافظة والإنقاذ يتجاوز مسألة الاستشراق من وجهة نظرنا ليشمل قضايا ذات أبعاد اجتماعية وثقافية وحضارية.

إذا اهتمام مبكرّ بالمعالم الإسلاميّة وانتباه مبكّر أيضا لطريقة المحافظة عليها هما الأمران اللذان جعلا من دراسة أعمال "هنري سلدان" (H. SALADIN) ضرورة وجب فيها البحث والتعمّق وإنصاف الرّجل وتسليط الضوء عليه وإعطاؤه ما يستحقّ من العناية.

---

[53] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 140.

[54] SALADIN, *Tunis et Kairouan*, 140.

قائمة المصادر والمراجـــــع

أولًا: المراجع باللّغة العربية:

- أرشيف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر.
- الأرشيف الوطني الفرنسي.
- بروديل، فرناند، *الحضارة المادّيّة والاقتصاد الرأسمالي*، ترجمة: مصطفى ماهر، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.
- فكري، أحمد، مسجد *القيروان* ، مصر: مطبعة المعارف، ١٩٣٥-١٩٣٦م.

ثانيًا: المراجع باللّغة الأجنبية:

- BACHA, M. , «Le Patrimoine Monumental en Tunisie Pendant le Protectorat 1881-1914: étudier, Sauvegarder, Faire Connaitre», *Thèse de Doctorat en Histoire*, Paris IV, 2004-2005.
- BACHA, M, « Henri Saladin (1851-1923) un architecte "beaux-arts" promoteur de l'art islamique Tunisien », Mercédès Volait et Nabila Oulebsir, (dir*), L'orientalisme architectural entre l'imaginaire et savoir*, Paris, C N R S / Picard, 2009.
- FRANÇOIS, P., *Dictionnaire des Orientalistes de Langue Française*, Karthala, Paris, 2008.
- GAUCKLER, P., ROY, B.,& SALADIN, H., *Monuments historiques de la Tunisie, Les monuments arabes*, Paris, Ernest LEROUX éditeur, 1899.
- MARÇAIS, G., *Manuel d'art musulman : Architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*, Paris, Editions Auguste, 1926.
- SALADIN, H., *Manuel d'art musulman*, architecture, Paris, Picard, 1907.
- SALADIN, H, *Tunis et Kairouan*, Les villes d'art célèbre, Paris, H Laurens éditeur, 1907.

ثالثًا: الترجمة الصوتية للمراجع العربية:

- ARSIF AL-MAʿHD AL-ʿALI LI-TARIẖ TUNS AL-MUʿAṢR.
- AL-ʾARSIF AL-WAṬNI AL-FARNSI.
- BARUDIL, FARNAND, *al-Ḥaḍāra al-Mādīūya waʾl-Aqtṣād al-Rʾasmālī*, Translation: Muṣṭafī Māhr, Cairo: Dār al-Fakr liʾl-Dirāsāt waʾl-Našr waʾl-Tūzīʿ, 1992.
- FAKRI, AḤMAD, *Masǧad al-Qaīrwān* , Miṣr: Maṭbʿa al-Maʿārf, 1935-1936.